رحلة الكنيسة فى صوم الميلاد
وتسبحة كيهك

إعداد
القمص أثناسيوس فهمي جورج

كتاب: رحلة الكنيسة في صوم الميلاد، وتسبحة كيهك
الكاتب: القمص أثناسيوس فهمي جورج
تنسيق داخلي، وتصميم الغلاف: موريس وهيب
الطبعة: أولى ٢٠٢٠م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
المطبعة: سيوبرس ت: ٢٦٢٢١٤٢٥

{جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ويحذر نشره أو إعادة طبعه أو الاقتباس منه إلَّا بإذن كتابي من المؤلف}

قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندريّة وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٨

الأنبا هرمينا
أسقف عام كنائس قطاع وسط وشرق
الإسكندريّة

الأنبا بافلي
أسقف عام كنائس قطاع المنتزة وشباب
الإسكندريّة

الأنبا إيلاريون
أسقف عام كنائس قطاع غرب الإسكندريّة

الفهرس

المقدّمة ٩

(١) عِيدُ البِشَارَةِ المَجِيد ١١

(٢) صوم الميلاد ١٥

(٣) النَّهْضَةُ الليتورجيَّة والتَسْبِحَةُ الكِيَهْكِيَّةُ ١٩

(٤) سَهَرَاتُ كِيَهْك فِي التَّقْوَى الشَّعْبِيَّة ٢٥

(٥) التَّسْبِحَةُ الكِيَهْكِيّة أيْقُونَةٌ صَوْتِيَّةٌ (١) ٣١

(٦) التَّسْبِحَةُ الكِيَهْكِيَّةُ أيْقُونَةٌ صَوْتِيَّةٌ (٢) ٣٧

(٧) العذراء مريم والثِيُؤطُوكِيات

(علم الثيؤطوكولوجيا) = المريميات ٤٣

(٨) عِطْر التَّجَسُّدِ الخَلاصِي ٤٩

(٩) المخلص الذي ننتظره!! ٥٥

(١٠) إِخْوَتُنَا الأَصَاغِرُ وهَدِيَّةُ المِيلاَدِ المَجِيدِ ٥٧

(١١) قصد الدهور ٦١

(١٢) فِي احْتِفَالِ عِيدِ المِيلاَدِ بِالغَرْبِ ٦٥

(١٣) برامون عيد الميلاد العجيب ٦٩

المقدّمة

جعلت الكنيسة قيمة وأهمّيّة كبيرة للاستعداد الاحتفاليّ بعيد الميلاد. وغرست روحانيّة عقيدة الإله المتجسد المولود من العذراء مريم ومن الروح القدس، لتصير حتمية الاحتفال بمثابه سلاح يحمي عقيدة التجسد الإلهيّ ويصونها مُعاشة وحية.

وارتبط الاحتفال بعيدي الميلاد والغطاس بإشراقة نور المسيح إلهنا شمس البر، لذلك أُدرجت هذه الأعياد ضمن الظهور الإلهيّ، بميلاد مسيحنا شمسنا الجديد.

ووضعت الكنيسة صومها للإعداد الطقسيّ لتجسد الميلاد البتوليّ، ليشغل ٢٩ كيهك مركز الضوء في الأجندة الطقسيّة القبطيّة.

حيث يخيم صوم الميلاد على الكنيسة وكأنّه زمن فرح وتسبيح بألحانه وقراءته، كي نستعد بأجواء التهيئة والتمجيد وسهر الليالي المُمهد للظهور الإلهيّ وسط الاحداث الباهرة التي سبقت الميلاد.

الأحد الأوّل: بشارة الملاك لزكريا الكاهن بميلاد يوحنا المعمدان العالي عن البطاركة والمكرم عن الأنبياء والذي لم يقم من بين مواليد النساء من يشبهه.

الأحد الثاني: بشارة جبرائيل للعذراء مريم الممتلئة نعمة التي نعطيها السلام معه لأن الربّ معها.

الأحد الثالث: زيارة العذراء لأليصابات نسيبتها التي نطوبها باستحقاق من أجل ثمرة بطنها.

الأحد الرابع: ميلاد يوحنا المعمدان العظيم في القديسين، السابق والصابغ والشهيد ونبي ما بين العهدين.

إنّه استعداد كنيستنا الليتورچيّ، وتقليدها، واستعدادها الشعبيّ للدهر الجديد الذي أتى بميلاد المخلص المسيح الربّ في ملء الزمان.

ومن دواعي سروري أن أجمع هذه المقالات التي كتبتها على مرّ سنين خلت، وتم نشرها على مواقع عديدة بشبكة الأنترنت لتكون مطبوعة بين يديك أخي العزيز في الربّ. راجيًا أن يدبر الله حياتنا لتكون له وينهضنا لنأتي إليه ونخدمه بحب خالص فنبلغ ما أدركنا هو لأجله، له المجد على كلّ شيء.

القمص

أثناسيوس فهمي جورج

يناير ٢٠٢٠م

(١)

عِيدُ البِشَارَةِ المَجِيد

عظيمة هي كرامة عيد البشارة، بكر الأعياد السبع الإلهيّة، الذي فيه كانت جُملة الأشياء التي الله مزمع أن يكملها بالتجسد العجيب وسرّ التدبير. أحيانًا كثيرة لا يلتفت الناس لهذا العيد مثل بقية الأعياد، لكونه يقع في صوم الأربعين المقدّسة، إذ يظنون أنّ كرامة الأعياد بالمأكل والمشرب، بينما هذا العيد هو رأس الأعياد كلّها وبدايتها، بالبشرى المفرحة في ملء الزمان عندما أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة، مولودًا تحت الناموس، لننال التبني.

جاء غبريال المُبشر الواقف أمام الله، إلى العذراء الطاهرة مريم حاملًا لها البشارة: "**سلام لكِ أيتها الممتلئة نعمة**". فقد اختارتها النعمة الإلهيّة من بين جميع الأجيال، لتصحح سقطة حواء الأولى. تفكرت في خزائن الكنوز ونور مجده المبهر، تفكرت من غير خوف ولا طياشة، بل برزانة وطاعة نالت النعمة التي لا تخضع لقوانين الطبيعة والمخفية، حتّى عن الأنبياء ومصاف القديسين. ففي البشارة حل الروح القدس على أطهر العذارى، وحيث يوجد الروح القدس تترتب الأمور وتنتظم، وحيث تكون النعمة حاضرة تكون الأمور كلّها ممكنة عند الله، فالمولود منها يدعى ابن الله، بهاء مجده ورسم جوهره.

امتلأت بملء كنز النعمة والسلام، لأنها وحدها المختارة من جميع الأجيال، كفخر العذارى الطاهرة نفسًا وجسدًا وروحًا. وهي التي ستحمل ذاك الذي يحمل كلّ الأشياء بكلمة قدرته. الربّ معها، لا زوج أرضيّ، لكن الروح القدس يظللها وهي التي لم تعرف رجلًا قط، والمولود منها قدوس وملِك القديسين، ومنها خرج اللؤلؤة الكثيرة الثمن. نالت التحية من عند أبي الأنوار، وصارت تابوتًا مصفحًا، وقسط ذهب مخفي فيه المَن، وهوذا كلمة الله أتى وتجسد منها، لذلك قال لها الملاك: "ستحبلين وتلدين"، وكأنّ الأمر صار واقعًا، وهو بحسب الله حتمًا واقعًا، لذا ألبسها ثوب الرزانة والطهر وجعلها آنية للفرح السمائيّ، وقد صانت البتوليّة بمصباح لا ينطفئ قبل وأثناء وبعد الولادة، كزيتونة مثمرة وكشجرة معطية للحياة.

إنّ العذراء اللامعة نالت البشارة بفم الملاك، وصارت مباركة في كلّ النساء وثمرة بطنها مباركة، لأنها بداية الخليقة الجديدة. فحواء الأولى رفضت الأوامر الإلهيّة، أمّا العذراء قبلت في اتضاع مشورة الله كعبدة. الأولى أذعنت لمشورة الشيطان، أمّا العذراء حواء الثانية آمنت بما قاله لها الملاك. حواء الأولى خُدعت بالوعد والتأله الكاذب، أمّا الثانية قبلت برضى أن يحل كلمة الله في أحشائها. ففي ملء الزمان تم الاختيار الإلهيّ لمريم العذراء حواء الثانية التي قبلت أن تحمل رأس وأصل الحياة، وجذرها الجديد الذي منه ستزهر البشريّة الجديدة وتزدهر متحدة بالله. وهكذا

صارت طاعة مريم العذراء هي المقابل المضاد لعصيان حواء، وبهذه الطاعة أصبح ممكنًا لعمل الخلاص أن يبدأ، إذ لم يكن ممكنًا أن يتم إلّا بواسطة حلول كلمة الله نفسه في أحشاء البتول زينة البشريّة، التي مثّلت عجنة البشريّة كلّها في قبولها مبادأة الله بالخلاص.

إنّ اليوم، يوم عيد البشارة، لعيد جليل ببشارة ميلاد الربّ الإله الذي يملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لمُلكه انقضاء، لأن مُلكه ليس أرضيًا ولا زمنيًا زائلًا، بل سمائيًا وأبديًا، واسمه على كافة المؤمنين به، وهو إلههم وملكهم ومخلصهم. وفي هذه البشارة كان أيضًا إعلان للثالوث القدوس الذي كان أولًا مستورًا ورمزًا في كتب الأنبياء، فأعلن الملاك حضور الثالوث القدوس الواحد في اللاهوت بلا تجزؤ ولا افتراق "الروح القدس يحل عليكِ – وقوة العلي تظللكِ – المولود منك قدوس وابن الله يُدعى ابن الله". لقد قال لها الملاك "**المولود منكِ**" ولم يقل الذي تلديه، بل منكِ، أي يتجسد منكِ بحقّ، وللوقت عندما أجابت: "ها أنذا أمة الربّ – ليكن لي كقولك". عند قولها هذا، للوقت الحاضر حل فيها شمس البر، لأنه لم يُرد أن يغصب الطبيعة التي أعطاها تخيير الإرادة وسلطة الحرية منذ البدء، حتّى طلبت هي ذلك بشهوة في الله من تلقاء الروح، ثم انصرف عنها الملاك.

مريم الطوبانيّة والقبة والسماء الثانية، المنارة وتابوت العهد والعوسجة البهيّة، أحبت الله من **كلّ** قلبها، ومن **كلّ** نفسها، ومن

كلّ قدرتها، لم تتمركز حول ذاتها، فوجدت نفسها ووجدت معها الحياة الحقيقيّة التي ملأت كيانها، فالذي يتخلى عن مشيئته الذاتية يصير حاملًا لله، بدلًا من أن يكون حاملًا لذاته، لهذا اختارها الله وقدسها وطهرها واصطفاها ليحل فيها، وقد أرسل لها ملاكه المبشر. واستطاعت مريم بإيمانها وطهارتها ونسكها وطاعتها أن تحقق حُلم البشريّة، "**ليتكَ تشقّ السموات وتنزل**" إش ٦٤: ١. نعم لقد انفتحت السماء، والكلام الإلهيّ الذي حملته بشارة الملاك، كان بمثابة الأساس للعهد الجديد، عهد بشارة الفرح والسلام الأبدي في صهيون، الأمّ التي قالت إنّ إنسانًا وإنسانًا صار فيها وهو العلي الذي أسسها إلى الأبد، وسُكنى الفرحين فيها. قامت واستنارت وجاء نورها وأشرق عليها مجد الربّ، ونزع عنها الأقضية وأُزيلت عنها العداوة، وصار عمانوئيل الله معنا في وسطنا بمجده ومجد أبيه والروح القدس.

(٢)

صوم الميلاد

وضعت الكنيسة صوم الميلاد بقصد الاستعداد للقاء المسيح الربّ المولود الآتي لخلاصنا، فنصوم لتجديد حياتنا الروحيّة حيث الصوم والصلاة والتسبيح والعطاء والتأمل، يجعلوا داخلنا مذودًا يُولد فيه المسيح المتجسد. يسعى كلّ واحد منّا في صدق ليهيئ نفسه كما يليق مشتركًا مع الكنيسة ليفرح بالحدث الخلاصيّ المشترك. "هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء".

صوم الميلاد هو أن نتحضر بالتوبة وتبييض الثياب لاستقبال الملك المولود، نستقبله بزينة النفس فنذوق وننظر طِيبته ونرتل "المسيح وُلد فمجِّدوه واستقبِلوه"، فهل ندرك أنّ صومنا هو إعداد وتحضير وتهيئة لاستقبال السيد في مذود قلوبنا؟! وهل عرفنا أنّ صومنا هو تحضير للعلية كي يأتي ويحل بخيمته فيجد مكانًا في مذودنا ليستريح ويُولد فيه؟!

إنّ إيماننا ليس مجرد معتقد أو أدب وفلسفات، بل هو التزام مُعاش وحياة بإلهنا الذي تجسد في التاريخ، وكلّمنا في أنبيائه القديسين وظهر لنا نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت، بتجسده العجيب والمحيي. إنّ إيماننا ليس فرضيات لكنه واقع، ليس

أفكارًا، لكنه حدثًا بدّل مجرى التاريخ عندما نظر الله لنا شيئًا أفضل، حتّى لا نهمل خلاصًا كهذا !! مظهرين ثباتًا وأعمالًا وثمارًا تليق بكرامة إنسانيتنا وتعقلنا واتحادنا بالكلمة اللوغس ***Logos***، الذي أنعم علينا بنعمة ووزنة العقل والحرية ونقلنا من الظلمة والاستعباد، لنبصر نوره العجيب الذي أشرق من المشارق بمجد الأعالي وسلام الأرض ومسرة الناس، وهو حاضرا معنا وفينا الآن وكلّ أوان وإلى انقضاء الدهر.

إننا نصوم لاستقبال حضور الربّ بالجسد، وتأسيس كنيسته جسدًا له عبر التاريخ، بعد أن كلم الأنبياء قديمًا بأنواع وطرق شتى، كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة بابنه الوحيد ربّنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح. نصوم لنتهيأ من جديد كي يولد فينا ويحل بيننا ويقدس طبيعتنا. إنّه لم يُنزّل لنا كتابًا مُنزّلًا، لكنه أعطانا ذاته لنغتنى بفدائه وخلاصه ورحمته وعشرته وأسراره الثمينة والعجيبة. نتعرف عليه ونتّحد به لأن هذه هي قيمة الحياة وكرامتها، عمانوئيل إلهنا الكائن في وسطنا بمجده ومجد أبيه والروح القدس، وهو إلى الأبد معنا وإلى دهر الدهور حسب وعده لكنيسته، ففيها نلقاه ونتحد به ونحيا معه لأنه مُسكن المتوحدين في بيت وفلك واحد.

صومنا ينبهنا أنّ الميلاد ليس مجرد قصّة ولادة ملك ملوك الأرض كلّها، بل هو دفع جديد لاتحادنا والتصاقنا به اليوم وغدًا، فقصّة الميلاد شيء هام، والميلاد كتجسد دائم الأهمّيّة. ميلاد الكلمة

المتجسد هو خلاص وحوار وصلاة ولقاء وتجاوب مستمر، هو نطق وعقل لحياة لا تنتهي.

لذلك نحن لا نتصارع مع العالم، بل نتحاور ونجاوب عن سبب الرجاء الذي فينا، اليوم وبلُغة اليوم "**وأنتم من تقولون إني أنا**" وسط عالم متمركز حول الإنسان، متمرد على كلّ ما هو إلهيّ وبعيد عن خبرة الروح في ماديّة وإنانيّة، بينما شخص المسيح يقلِّب القديم ويلتصق اسمه بالجديد والجدة والتجديد. لقد جاء "لتكون الحياة لنا أفضل" في جدة النور والفرح والحقّ والعدل والحرية والسلطة، وليكون الأصغر كالأكبر والمتقدم كمثل الخادم، وليكون اللص اليمين أعظم من "بيلاطس"، و"بطرس" الصياد أعظم من "أفلاطون"، و"يوحنا المعمدان" أعظم من "هيرودس"، و"بولس" أقوى من "نيرون"، لأنه جاء ليرفع البائس والمسكين والفقير والمُزدرَى من مزابل هذه الدنيا وترتيباتها الطبقيّة مؤسسًا ملكوتًا لا يتزعزع، ملكوتًا لا يضم المستكبرين ولا الشتامين ولا الظالمين ولا القتلة والطماعين، ملكوتًا لا يعرف العداوة والتمييز والعنصريّة والشرّ.

إننا نصوم لنُعيّد في عيد الميلاد بمجيء الله إلى الإنسان، لكننا بالأحرى نعيّد لعودتنا إليه، لقد جاء إلينا مسيحنا، فكيف نحن نأتي إليه؟!! إذن لنجتهد في صومنا ليكون بمثابة إعلان رغبتنا بالرجوع والعودة إليه، ولنستقبله لأنه تجسد على أرضنا كي يرفعنا كخليقة مستعادة، لان هذا العيد يخصنا، لذلك لا تعود لنا السنين

والتاريخ مجرد أرقام، بل حياة مقدّسة مرتبطة بالذي تجسد لأجل خلاصنا مسيحنا المولود هو صاحب العيد، وصومنا وضعته الكنيسة، كي نستقبله ويولد في مذود قلوبنا، لأنه هو سيد التاريخ والحياة كلّها، ولا فرح أثمن من استقباله، كأعظم زائر نستمد منه ينبوع حياتنا فيخمّر عجين العالم كلّه بالفرح والمسرة، فلنبدأ بدءًا حسنًا ولنُشرِّع أبوابنا لنستقبله كي يبيت ويتعشى ويقيم ويصنع عندنا منزلًا، فالمغارة التي وُلد فيها هي كنيسته، والمذود هو هيكله، ويوسف النجار والرعاة والمجوس هم طغماته وجنوده -الكهنة والشمامسة والخدام والشعب- والعذراء "مريم" هي عرشه وهو قربان العالم كلّه وهو أسقف نفوسنا وراعيها الأوّل والوحيد. إذ ليست كنيسته مؤسسة بشريّة لكنها السماء على الأرض. ليت الله يعطينا عيونًا روحيّة أبهى من عين الجسد حتّى نمتلك عينًا لا تقوى خشبة الخطية على أن تسقط فيها لنبصر مخلصنا المولود لأجل خلاصنا.

(٣)

النَّهْضَةُ الليتوُرجيَّة والتَسْبِحَةُ الكِيَهْكِيَّةُ

تعيش الكنيسة القبطيّة نهضة ليتورجيّة كبيرة في التسبيح. يتشارك فيها عشرات الآلاف من العابدين الساهرين المسبِّحين من الشعب البار الحافظ الأمانة، في ظاهرة تَقَوية رائعة تمتد عبر الزمان. فتراث كنيستنا الليتورجيّ موسوم بمذاقة الخبرة الروحانيّة التي لا تبدأ بالمفاهيم والنظريات بل بالتذوق الكياني والخبرة. كنيسة مسبِّحة مرنمة، كنيسة العيش واختبار الفرح الذي يعلنه صديق العريس. الفرح الكائن بذاته كالهواء الصافي في ضوء الشمس. الفرح المعطىَ مقدّمًا للجميع، الفرح الهائل الفريد الكائن في التجسد الإلهيّ. الفرح الذي هو "**سيمفونيّة**" المعنى "للحاجة إلى واحد". هذا الفرح والتسبيح والتمجيد لاستقبال مخلص العالم مشتهىَ كلّ الأجيال الكائن معنا (ϩⲏⲡⲡⲉ ⲫⲭⲏ ⲛⲉⲙⲁⲛ). هذا وترتب الكنيسة السهرات الكيهكيّة، ضمن خدمة إيقاعيّة مرافقة لسير الزمن حسب الطقس الكنسيّ، حيث نعيش سرّ التجسد حاضرًا ونحياه الآن في الكنيسة، فتذوب حياتنا في حياة صلاة الكنيسة المجتمعة، ويتناغم صوتنا الضعيف مع صوت الكنيسة الواحدة كلّها، ويكبُر بانضمامنا لجموع المؤمنين عبر الأجيال كشهود عيان لتاريخ الخلاص، نعاينه عيانًا كرسم للأبدية في

الزمن "ضمن الزمن دون أن يكون منه". وبالتسبيح الأصيل والانجماع "قم انهض يا مسكين وإلبس ثوب اليقين...". تصير العبادة حلوة في حناجرنا أكثر من العسل، وتتجمع فينا الحواس بيقظة "نفسي وعقلي أرفعهما إلى السماء". ونتنبَّه إلى عمق معاني النصّ المقدس لسرّ التدبير، بالتأمل المتواتر في الهوسات الأربعة والشيؤطوكيات والإبصاليات والمدائح والطروحات والتفاسير، فتصير لنا زادًا روحيًا نتلمّس من خلاله إعلانات الله ومواعيده عن مجيء المخلص في ملء الزمان ليردنا مرّة أخرى إلى الفردوس ويهبنا العتق من الفساد.

تبتدرنا تسبحة كيهك بالتسبيح لله صاحب المبادرة الخلاصيّة الذي سعى ليجتذبنا إليه، وأخذ الذي لنا ليعطينا الذي له. عبر أنبيائه القديسين الذي تعهدنا بهم، وصولًا إلى البشارة بولادة "يوحنا المعمدان" صديق العريس ليهيئ الطريق قدامه، ثم البشارة المفرحة لـ (م ر ي م) فخر الرتب، وزيارتها لـ"أليصابات"، ثم حدث الميلاد البتوليّ والطلقات الروحانيّة والعجب العُجاب كقول الأنبياء. فنهتف بفهم مع القوات العلويّة وتمتلئ السماء والأرض بمجد الأعالي، وبالسلام على الأرض، وبمسرة الناس، حيث يجتمع الجميع معًا: العلويون والأرضيون، الذين في السماء مع الذين على الأرض، قطيعًا واحدًا في تسبيح الغلبة والخلاص (الهوس الأوّل)، وتسبيح الشكر للربّ لأنه صالح، وأنّ إلى الأبد رحمته (الهوس الثاني)، وهو حاضر معنا وسط أتون برية العالم (الهوس الثالث)،

ونسبحه مع كلّ نسمة ومع خليقته وجميع قديسيه (الهوس الرابع). وتهدف الكنيسة عبر برنامجها أن تُعدّنا لنعيِّد لحياتنا ولخلاصنا الأبدي، لا لتذكار أو ذكرَى، لكن لقبول مسيح المذود الحي الحقيقي. نرى ونشهد ونُخبر بالحياة التي أُظهرت لنا، وللمولود الإلهيّ الذي وُلد لنا، واستَعلن نفسه حاضرًا دائمًا معنا. حيث التسبيح المتوازي والمتبادَل مع تعابير المجد اللائق لعمانوئيل الذي تفسيره الله معنا، والذي صار لنا تسبحة دائمة في أفواهنا، نسبحه باحتراص ربوات مضاعفة. وفي الشهر المريميّ يقترن صوم الميلاد بالتسبيح والتهيئة لعيد الميلاد والإبيفانيا Ἐπιφάνεια، والأوكتاف Octave بعد أربعين يومًا في عيد الختان، حيث يلتحم الصوم باللحن الكيهكيّ، كمصدر فرح روحانيّ لاستقبال كنز خلاصنا في المسيح، الذي هو ثمين وغالٍ جدًا ومتعدد المفاعيل. سرٌّ لا يمكن فض ختومه أو إدراكه بكلمات بشريّة، لذا نوقِّره بذبيحة تسبيحنا ثمار شفاهنا، فلا شيء يساوي معجزة خلاصنا وتقديسنا ومصالحتنا وتجديد خلقتنا واستعادة بنوّتنا بالواحد من الثالوث. نهضتنا الليتورچيّة مصدر القوة الإلهيّة لحياتنا الروحيّة وانعكاس للشهادات النبويّة ولرسالة الإنجيل وتفسيرات آباء الكنيسة. عندما نقف أمام تدبير الله الخفي الذي أُستُعلن لنا في تجسد الكلمة لتستودعه الكنيسة (سرّ جسده) والتي لا زالت تحيا انتظاره وآية حضوره الدائم فيها، وإعلان بشارته الخلاصيّة التي رفعت بشريتنا إلى السماء، حتّى لا نحيا بأنفسنا بل بروحه

القدوس. فـ"بيت لحم" هو بابنا المفتوح عبر طريق الجلجثة للحياة مع الله أو بالحري لحياة الله معنا، وكما تفرح العروس بعريسها، هكذا تفرح الكنيسة بربها وتُشرك معها الخليقة كلّها في تسبيح الشكر لإله يعقوب. في الكنيسة خيمة العجائب نتقدم في سبل البر عبر (مجرىَ) خلاص الله في التاريخ وحضوره فينا، فنتلذذ بالقدير وتجتذبنا أنوار "بيت لحم"، وتسبيح أصوات الملائكة لنعيش سنة الربّ مستترين مع المسيح، مُحضرين هدايانا مع المجوس والرعاة للذي حل بيننا ونصب خيمته في وسطنا ورأينا مجده وأسس التدبير بالنعمة التي لتدبير الخلاص المعطىَ لنا من الآب والابن والروح القدس. معلنين العقيدة الخلاصيّة للثالوث التي هي رأس وأصل ومحتوىَ إيماننا وخلاصنا، والذي عليه تأسست الكنيسة "قلبي ولساني يسبحان الثالوث، أيها الثالوث القدوس ارحمنا". إنّها عبادة تحقق الوحدة بين الزمان الماضي والزمان الحاضر، أي بين الإعلان الإلهيّ وحاضر الكنيسة، وبلغة الليتورچيّة القبطيّة بين "كما كان" وبين "هكذا يكون"، من جيل إلى جيل وإلى دهر الدهور.

وهكذا ننتقل بالتسبيح والتمجيد والبركات من التاريخ إلى الحاضر، الآن وهنا، فالبشارة والحبل الإلهيّ تصير فعلًا مضارعًا تامًا في حياة الكنيسة الآن!! ننتظر ونترقب ونشتاق لمسيحنا الذي تهللت كلّ الأمم بمجيئه عبر ليالي التسبيح، ويختمر فينا الوعي عبر الألحان والمدائح والشروحات والتطويب وترانيم الخلاص وتحقيق المواعيد. متجاوبون مع صدىَ النبوات والرموز

والتشبيهات وصلوات الآباء. كذلك لا شك أنّ هذا التسبيح يخلصنا من الفرديّة والعُزلة والأتعاب النفسانيّة، ويوحِّدنا مع الكنيسة، فنتجاوز أوجاعنا البيولوجيّة وآلام زماننا الحاضر، ونعيش كعائلة سماويّة مع مجمع المقدسين والأبرار المكمَّلين الفعَلة الأمناء، ومع محفل الملائكة، متأصلون في سماء اللاهوت وعبادة الكلمة المتجسِّد، الذي به وحده نكون أعظم من منتصرين، وفيه مركز الكون الذي يطلب وجه رحمته. إنّها نهضة ليتورچيّة ورحلة روحيّة نتلمس فيها البشارة والفرح العظيم والرؤىَ مع "زكريا" الكاهن و"إليصابات" ومع "يوسف النجار" حارس الميلاد البتوليّ، ونتلمّس الإيمان والصمت والسجود والابتهاج وحلول الروح القدس، وبخور يمين المذبح، وحضور "جبرائيل" الواقف قدام الله، وتسبحة عظائم القدير التي لسيدتنا وملكتنا العذراء كلّ حين.

فليعِد الله علينا هذه الأيام بسِمة الفرح والثقة الغالبة على الملتصقين به، وليقبل ويكمل أعمال يديه، وليرفع عنا الأتعاب ويقرر لنا سلامه.

ΙΧΘΥΣ

(٤)

سَهَرَاتُ كِيَهْك فِي التَّقْوَى الشَّعْبِيَّة

التقويم الليتورجيّ الذي تأسس في الكنيسة صار طريقنا التقليدي للدخول في عمق الروحانيّة القبطيّة الأرثوذكسيّة. وقد صارت فيه التسبحة الكيهكيّة فرصة لخبرات روحيّة وتأمليّة عميقة، وفيضًا لملء داخلي نناله، وتظل يُنبوعًا باقيًا في مسيرة الكنيسة، ذبيحة الروح المنكسر، ذبيحة البر، ذبيحة التسبيح والمحرقات السمان مع بخور وكِباش تستقيم قدام الله الذي أعطانا روح البنوة لنسبحه ونباركه ونزيده علوًا إلى الأبد.

في كنيستنا -(كنيسة التسبيح والترتيل والترنُّم)- صارت سهرات الشهر الكيهكيّ ممارَسة تَقَوية شعبيّة، نجتمع فيها بالأحْقاء المنطَقة والسُرُج الموقدة مع كلّ الجموع الساهرة العابدة من عبيد الله القوي المتعالي، الذي غُلِب من تحننه، وأرسل لنا ذراعه العالية وأشرق لنا جسديًا. نسهر بنور اليقظة التي لا تغلبها الظلمة، منتظرين إشراقة ربّ الأرباب ومُنشئ الأكوان. ناهضين مع كلّ بني النور لنسبح ربّ القوات الذي اتخذ شكل العبد، ومجد ربوبيته غير منفصل عنه، نستقبل ميلاده عند مجيئه إلى الأرض القفرة كي يفدينا ويهزم حِيَل الشيطان.

فقد صارت سهرات كيهك متجذرة في التقوى الشعبيّة القبطيّة، حيث نقف جميعًا وسط الجماعة في كنيسة العهد والوعد، سفينة النجاة لنسبح ربوات مضاعفة، ومسيحنا يقود قلوبنا قبل أصواتنا، لأنه هو المركز في وسط خورس المسبِّحين. نجتمع اثنان وثلاثة بل وألوف، حيث يأتي العريس للمنتظرين مجيئه الوشيك.

وهكذا يكون شهر ديسمبر (كيهك) بجملته زمنًا يأخذ مَنحىً استعداديًا بالصوم المفرح والتسبيح، كي يأتي ويحل فينا ملكوت الابن الوحيد الكلمة المتجسد. هذا الملكوت الذي نتدرب عليه في الكنيسة ونبدأه منذ الآن، بعد أن دخل المسيح إلى التاريخ بتجسده الإلهيّ من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، لا ليلغ إرادتنا بل ليسند ضعفنا ويحيطنا بوصاياه المعطية الحياة، لم يأنَف من مشاركتنا بشريتنا، لكنه أهَّلنا لشركة ميراث النور.

إنّه (الألف) الذي جاء لتحقيق (الياء) بتدبير الخلاص الثمين، وليخلصنا من خطايانا ويكون لنا عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا. تفيض سهرات كيهك بالتسبيح والمدائح. لنعترف ونمجد ونشكر فضل إنعام المسيح مخلصنا الذي رفع شأن طبيعتنا، وصار آية ومعجزة خلاصنا، عندما أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له.

كذلك نمجد أمّه العذراء كورة الفرح، الملكة المشتملة بالنور والحُلة، وننطق بطوباويّة سيدة الأكوان، ست الأبكار على العشرة أوتار، لأنها أوّل مذبح في التاريخ. ونقول لها: يا أمنا يا عذراء إحنا ولادك. ونمدحها قائلين: سَبَاني حبك يا فخر الرتب، لأنكِ عَجَبٌ

من عَجَبٍ. ومدحك زاد قلبي فرحًا وجعل نفسي تنشرح. فمَن يمدحكِ شطرًا تشفعي فيه ألوفًا.

وتأخذنا الكنيسة في تسبيحها الليتورچيّ إلى البشارة والميلاد، بداية الأعياد وأساس كلّ المحطات في طريق خلاصنا، حيث تجسد المسيح وأتى إلينا، منتظرًا إرادتنا وقبولنا وتجاوبنا مع نعمة تجسده، ليصير واقعًا شخصيًا وكنسيًا وكونيًا. نلهج الهوسات والثيؤطوكيات والمدائح والطلبات والطروحات. ساجدون مع الرعاة، مقدمون هدايانا مع المجوس للملك المولود، مسبحون (الذوكصا) مع القوات السماويّة، بذكصولوجيّة مجد الله وسلام الأرض ومسرة الناس والرأي الحسن، وسط الأخبار السارة لاستعلان ظهوره المحيي في هذا العالم، مُعلنين مجده كإله مولود في الجسد من عذراء بسرّ عجيب.

وحقًا يشرق الله بنوره على الساهرين كما أشرق يومًا على الرعاة دسمًا وزخمًا روحيًا وقلبيًا ليتجاوبوا متأملين حضور المسيح فيهم وقبولهم لمعرفة السرّ. فبالتجسد الإلهيّ بطُلت الأفكار الفلسفيّة التي تجعل الله في حيّز المبدأ والفكرة. وأنّ ما تربطه بالإنسان مجرد شريعة أو تعاليم، متذوقون عظمة سرّ التقوى في عبادة وفرحة عقليّة. لأن آدم الحزين استرد رئاسته، لأن آدم خلص من الغواية وحواء عُتقت من طلقات الموت، لأن آدم الأوّل من التراب دخل إلى الفردوس وسُر خاطره، لأن زلة آدم قد انحلت وتم خلاص ما قد هلك، بل وصار آدم مدنيًا في السموات، لأن آدم الأوّل صار

مردودًا إلى الفردوس دفعة أخرى، وصار الصلح به موجودًا، وقد كمل السرّ المعهود، لأن كتاب عبوديّة آدم وحواء قد تمزق، وهما قد تحررا، لأن الخطية عندما كثرت تزايدت النعمة وتفاضلت، لأن بيت لحم مدينة الأنبياء ولدت آدم الثاني، والمغارة قد أشرق منها مجد اللاهوت الذي لخالق الأدهار.

وتُدخِل عبادة السهرات الكيهكيّة فرحة العبادة وبهجتها في نفوس العابدين بتعزية وتثبيت وتقوى ورجوع بغير ترفع. ليعطوا التسبيح والسجود لعظمة إلهنا العجيب الصانع الإحسان الذي يعُول كلّ أحد بكلّ نوع. من أجل سرّ تجسده الناطق، مسبحون علانية بأحلى لهجة وبصحيح اليقين نفسًا وعقلًا ولسانًا، مرنمون بقيثارات روحيّة للثالوث القدوس، ناطقون بتماجيد حسنة متفقة مع الأجناد النورانيّة والطغمات الروحانيّة، مُصَلون من أجل الحُضَّار والغياب، بالأصوات الشجيّة والمديح الحسن بفنون.

إنّ شعبنا التقي الساهر المحب لكنيسته -(قُم وانهضْ يا مسكين، وإلبس ثوب اليقين)- يستعد للعيد العذرويّ البتوليّ بالفرح الروحانيّ مع تهليل الخليقة بمجيء المخلص وكمال كلّ المكتوب. جاعلون الخدمة حيّة بقانون الصلاة وفكر إيمان الكنيسة المجتمعة، التي نُقيمها ونذوقها فتقيمنا وتوجدنا مجتمعين، حيث تذوب المسافات وتتحد الأجيال وتلتقي النبوات والمواعيد وتتجمع الأزمان والأوقات في ذلك اليوم الذي فيه تلد البتول الفائق الجوهر، والأرض تقرب المغارة لمن هو غير مقترب منه،

ونتطلع إلى المضجع في المذود، ونبصره كإله مالك لكلّ شيء، الضابط الكلّ، ساهرين مرنمين بالمشيئة الصالحة. شاهدون بعبادتنا لمعرفة الخلاص بمغفرة خطايانا باحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا مشرقًا من العلا ليضيء ظلمتنا ويهدي أقدامنا ويحيي عمله وسط السنين (رأينا وشهدنا) شهود لله، لأنه شاء لنا أن نكون له شهودًا حتّى يكون هو لنا بدوره شاهدًا ومخلصًا ومدافعًا من ضربات المكار.

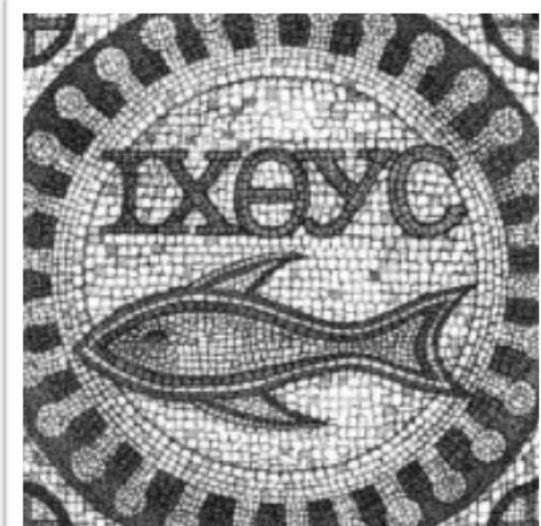
ιχθυς

(٥)
التَّسْبِحَةُ الكِيَهْكِيّة أيْقُونَةٌ صَوْتِيَّةٌ (١)

التسبحة القبطيّة هي مستودع خبرات الكنيسة، وهي ليست بهيِّنة، وكلّ من اختبرها وذاقها وفهم معانيها تأخذه، بحيث لا يجد ما يماثلها في الشموليّة والدسم والعمق المستيكيّ الروحانيّ والعقيديّ، فلغة التسبحة فن فنون بمعنى الكلمة. فن روحانيّة الآباء العظام وتقواهم وخبرتهم. لهذا أُلقي علينا نِير الفهم (تعالَ وانظر!!!) كلمة ولحنًا وعمقًا وسجودًا وتضرعًا وانسكابًا، مغروسين في حضرة الله وسط شعبه في مسكنه ومحل موضعه المستعد. حيث يكشف قالب التسبحة النصّيّ: الأبعاد الكتابيّة واللاهوتيّة والعقيديّة والروحيّة، كسيمفونيّة إيمان الكنيسة وتراثها الحي المُعاش عبر الأجيال، الذي ينقلنا بالفهم الروحي والتذوق لمعرفة الحقّ متجاوزين الحرف لبلوغ الروح المحيي، وإدراك الحكمة في شركة الطغمات السماويّة وجماعة المؤمنين وملامسة حضور العريس السماويّ، بعين الإيمان ويقينه حسب وعده الصادق. وبهذا الإيمان عينه نسبحه ونمجده ونسجد له ونباركه ونتضرع إليه واثقين بأنّه معنا وفيما بيننا كائن ويكون، حيث يجتمعا الماضي والمستقبل ليلتقيان في الحاضر المكرَّس.

ملاحظون كيف أنّ الشكل الليتورچيّ للتسبحة الكيهكيّة يأتي كدليل تثبيت لمعاينة سرّ التجسد الإلهيّ، عبر التعبير النطقيّ ونصوص الإبصلموديّة التي تنطق بالحكمة والمعرفة الإلهيّة المقترنة باتفاق نغمات الخلاص، في لغة وصياغات مَحكيّة تعبر عن الحدث الخلاصيّ، وفي عبادة مرنَمة موزونة ومفعمة بروح التعزيّة وفرح الترقب على قيثارات النفوس، تدخل إلى العمق والحوار في حضرة مجد الثالوث القدوس، في مناجاة جماعيّة لكلّ القلوب والألسنة طالبين الرحمة بلجاجة "قلبي ولساني للثالوث يسبحانِ.. أيها الثالوث القدوس ارحمنا"، وفي نُسك فكري لتقديم كلّ الحواس والفكر وبقية العقل كذبائح معقولة لله، عبر تصوير نغمي مختبئ بين النغمات والخلايا الصوتيّة الموسيقيّة.

ويتضمن الإطار الليتورچيّ للتسبحة كلّ أنواع الصلوات: التوسلات (*Intercessions*)، الصلوات (*Prayers*)، التشفعات (*Supplications*)، التشكُّرات (*Thanksgivings*)، فهي مشحونة بالتضرعات والالتماسات والتوسلات والتعهدات والنذور والتشفعات لأجل الكائنات وجميع الناس (١تي ٢: ١). لتنسكب التسبحة ذبيحة عقليّة غنية بالاصطلاحات والمعاني المليئة بالسمو، مثل لهيب لا يمكن إدراكه، ملتهم كلّ شيء حتّى يصل ويُعلَم لدَى الله. "تجمعي فيَّ يا كلّ حواسي لأسبح وأمجد ربي يسوع"، ويصير التسبيح حلوًا في الحناجر أكثر من شهد العسل، ويحقّ له وحده الشكر والسجود والكرامة أبديًّا.

ونتجه في التسبحة الكيهكيّة إلى الله إله الكنيسة ورأسها وحاكمها ومالكها ومخلصها، نتضرع إليه ونناجيه بالهامات وابداع التعابير الليتورچيّة وبالمديح العبقري، لنخاطبه قائلين: "يا الله مخلصنا / الأزلي قبل الأدهار / الكائن في مجد أبيه / المهتم بنا والمدبر كلّ الأمور / حامل خطية العالم / الربّ المرهوب / الضابط الكلّ محيي الأرواح والنفوس / إله خلاصنا / الملك الديان/ الربّ المعبود / ربّ القوات / الستار وحيد الآب مسياس / النور الحقاني / معدن الغفران / ربّ الأرباب الفادي الكريم / مدبر مختاريه / الكائن في حضن أبيه / ابن الله الكلمة / المشتاق لخلاص خليقته / ربّ جميع البشريّة / ملك المجد الواحد من الثالوث / الله القدير / ربّ وإله آبائنا مخلص كلّ أحد / إله الرحمة وحياة كلّ إنسان محب البشر الصالح / ربّ الدهور الحي بغير زوال / الله الآب والابن والروح القدس ثالوث إله واحد ربّ جميع الآلهة / الله المتعالي سيدنا القوي الكثير الرحمة / ابن الله المُنزَّه / مخلصنا الوسيط يسوع المسيح / مسيا الرؤوف / إله الآلهة عمانوئيل إلهنا / ملك الملكوت الواحد من الثالوث / المتكئ في حضن أبيه الذي هو فوق كلّ رئاسة / صانع الخيرات الأزلي ذو الجلال الدائم إلى الأبد / إله جميع الأحقاب ذو الاسم المرتفع / إله إبراهيم الذي بسط يمينه / والجمع الممسوك مع آدم رفعه إليه / الله المستريح في قديسيه / الراعي العظيم الذي جمع المؤمنين وألَّفهم مع الملائكة وصيَّرهم وارثين لملكوته الأبديّة / الذاتي مع أبيه من جوهر الإله / غير

المنظور والغير المدنو منه / المتسربل بالنور والساكن في النور الذي لا يُدنَى منه / ملاك المشورة العظمى / الكائن والذي كان والذي أتى وسيأتي / آدم الثاني المسيح الملك / عمانوئيل مخلص العالم.

وبمناداتنا بلجاجة على الله نلتحف بالفرح من أجل حضرته بالسلام والنصرة والحلاوة والبشرَى والكرامة، ومن أجل نوالنا رتبة الفرح والسرور بسرّ التجسد الإلهيّ الذي حوّل لنا العقوبة خلاصًا. من الحسرة والحيرة وحزن آدم النادم واكتآب الأرض المقفرة الذي صار لنا بالتدبير حُريّة وبنويّة ومجدًا وخلاصًا ونجاة من ضيق الجنوس ورِقّ الشيطان، والذي به بلغنا أرض الميعاد، وانمحَى الرِقّ وتمزق الصك ونلنا المراد.

من أجل هذا نتهلل بالتسبيح والمديح اليسير، وتفرح نفوسنا التي كانت بهيميّة (حيوانيّة)، وقد صارت الآن روحانيّة، واستمدّت قوام حياتها من قوة الحياة الإلهيّة، وتتزود زادًا روحانيًّا يدسم روحها بدسم سماويّ يملأها فرحًا ولسانًا ونعيمًا، فنتقوَى على من بنا يمكرون. وتتقوى شجرة الكنيسة بالتسبيح في السرّ والإجهار، حاملين هدايا مُرّ البخور والرضا، ولُبان التسبيح، وذهب توبة النفوس لنبلغ مذود الملك المولود الآتي. غير المتجسد الذي تجسد، وغير الزمنيّ الذي صار تحت الزمن. الحاضر معنا، وفيه قد خلَّصنا من الفساد، وتربّينا على معرفة إرادة الله. الكائن بذاته الذي أتى إلى

الوجود في ملء الزمان ونلنا به التبني. وهو الملء الذي أخلى نفسه ليكون لنا نصيب في ملئه.

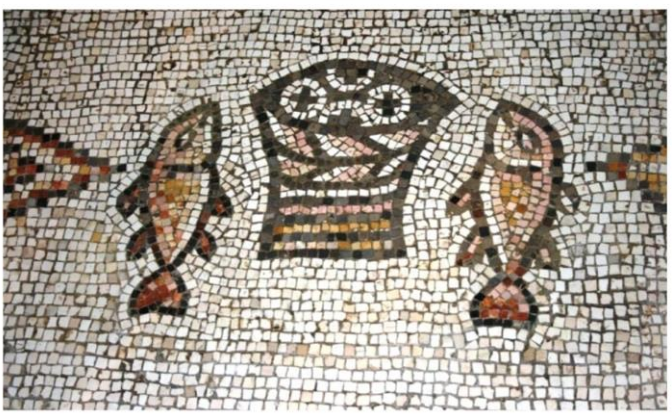

(٦)

التَّسْبِحَةُ الكِيَهْكِيَّةُ أيْقُونَةٌ صَوْتِيَّةٌ (٢)

تشتمل الأيقونة الصوتيّة للتسبحة الكيهكيّة على خبرة إيمان قوي وحي، يؤكد على أنّ حياتنا وبقاءنا لا تصنعه القدرات البشريّة، إنّما حضور الله معنا وسط تسبيحات شعبه. فكنيسة الله الحي هي أشدّ رسوخًا من كلّ المؤسسات الأرضيّة، بفاعليّة الصلاة المطعَّمة والموشَّحة بالعبادة والشكر والتوسل والطلبة والترنُّم، والتي جاءت في شكل وقالب ليتورچيّ مُفعَم بالتعبيرات والاصطلاحات والمنطوقات المبدِعة والعبقريّة.

وبالتأمل في ما نسبح به، نجد أقولًا مطولة عن اللُجَّة الغير الموصوفة التي لمُحب البشر. فلا يوجد أيّ عقل ولا أيّ نطق أو سَمْع يحتمل هذه اللُجَّة عندما نقترب بالتسبيح من سرّ التجسد الفائق لكلّ فهم ووصف، سرّ رسم الحمل الذي به تم المكتوب، والذي هو عظيم وحقيقي ومُكرم جدًا، السرّ الذي اقتادنا إلى التبنّي والتبرير وشركة الابن الوحيد وشركة الميراث في جسده، عندما صار هو خبز قداستنا بفرط محبّته العجيبة ورحمته غير المُدرَكة، الصائر لنا يُنبوعًا للخلاص الأبدي. عمانوئيل الحاضر معنا في مذود بيت لحم، حاضر معنا بل وفينا، نزل إلى هبوطنا ليرفعنا إلى

علوّه، ويجعلنا مُطوَّبين، لأننا نراه ونسمعه ونتحد به، الأمر الذي اشتهاه أنبياء وأبرار كثيرون.

في أيقونة صوتيّة حلوة نخاطب الحال فينا بتدبيره وبسرّ تجسده المكنون، الذي ظهر في عقب الأجيال، سرّ جميع الأسرار، فغير المدروك جسُّوه، وغير المنظور نظروه، وصار إنسانًا كاملًا، وغير المرئي رأوه. أحبنا من بعد العدم وخلصنا من ضيق الحبوس، ورد الخراف الضالة إلى الفردوس، وصيّرنا مؤمنين بعهده الجديد، متنفسين به أنفاس الله. فقد نجانا من المعاطب ومن بحر الظلمات ونار الجحيم وصيّرنا له شعبًا مبررًا وبلّغنا المطلوب. وقد أعطى الخلاص للعالم الذي خلقه بإرادته، ونجانا حتّى لا نطيع الكذاب وأبا الكذاب، لأننا محسوبون عليه، وهو قد هزم اللص السلّاب غير الرحيم، القتّال للناس منذ البدء، والوحش والنبي الكذاب.

به انعتقنا وأوجدنا من بعد العدم، وهزم عداوة العالم المعكوس وسحق الشيطان، ومحا الرِقّ بالكلية، ودكّ الأعداء الشياطين، ورئيسهم صار محبوسًا. ونلنا به الفرح المخصوص، وأزال عنا كلّ الأحزان بدم صليب الحمل السالم رئيس الصلح والسلطان.

ونتقدم في التسبحة الكيهكيّة إلى الله بطلبات الكنيسة المجتمعة ونضعها في الذاكرة الإلهيّة، ونطلب منه أن يهب لنا كمال مسيحيتنا / وأن يرفع قرن المسيحيين / وأن يحرسنا وينجينا ويخلصنا من الفناء والشرور / وأن يسمع لنا في ضيقنا ويملأنا من حكمته ويفرِّق أعداء الكنيسة ويُبطل مشورتهم ويوصلنا للمينا

وينصرنا في زمن الشدائد / نطلب منه أن يحفظ عظامنا فلا تنكسر وأن يعطينا قوة وعزاءً ويُنعم علينا بالسرور / وأن يسمع تضرعنا ويحوط علينا ويبارك ميراثه. يرفعهم ويرعاهم إلى الأبد / أن يتراءف علينا ويباركنا ويُشرق بوجهه علينه ويرحمنا / أن تدركنا رأفاته / أن يساوينا بأصحاب العشر وزنات / أن لا يحاسبنا على الظلم وخباثة القلب / أن يدبِّرنا بتدابيره ويُغنينا بفضل غناه / أن لا تغطينا الظلمة العالميّة وأن يجدد حياتنا بالفضائل / أن ينجينا من المعاطب ويرحم صنعة يديه / أن لا يحرق جهالاتنا / ويكسر عنا فخاخ الشيطان / أن يشرق فينا بنور لاهوته كلّ حين / ويحسبنا مع اللص اليمين ويُضيء عقولنا وأفهامنا / أن يسحق قوات الشياطين النجسة / نطلب إليه أن يحرسنا إلى النفس الأخير ويقبل إليه بخورنا وكلّ قرابيننا / أن ينظر إلينا ويستجيب بعين الرحمة والتحنن / أن يهدينا برحمته إلى الغاية، ويجدد حياتنا بالفضائل / أن يكون لنا عونًا في التجارب ويُدخلنا إلى جبل ميراثه ويغرسنا في ذاك الدار مسكنه ومحله / أن يمنحنا بهجة خلاصنا وينصت لكلماتنا وصراخنا ويثبتنا في الإيمان المستقيم / أن يملأنا من حكمته ويعطينا إتفاقًا ويكسر المعتدين على نفوسنا وأرواحنا / أن لا يحرق عدم معرفتنا مثل سدوم ولا يهلكنا مثل عامورة / ويقطع من عقولنا الخطايا والغلط / أن يبدد أعداءنا ويخذل مشورتهم إلى الغاية / أن يحل رباطات خطايانا ويكون لنا معينًا وحارسًا ومخلصًا / أن يسمعنا سريعًا ويُدركنا بصلاحه عاجلًا

/ أن يعطينا وقتًا هادئًا وأزمنة لذيذة / أن يستر علينا بستر جناحيه / أن يكتب أسماءنا في سفر الحياة / أن يستجيب لنا في زمن مقبول ويفرق عنا الأبالسة ولا يُهلكنا بل ينظر إلينا كلّ حين / أن يهدينا بأحكامه ويورثنا بيعة الأبكار / أن يثبّت لنا ناموسه ويردنا من ضلالنا ويحسبنا مع اللص اليمين / أن يهدينا برحمته إلى الغاية ويعطينا نصيبًا في أورشليم السماويّة / وأن يرحم صنعة يديه ويجعل إتكالنا عليه ورجاءنا فيه / أن يشملنا بمعونته ويعطينا جسده مرهمًا ودمه لنا ترياقًا / أن يملأ بيعتنا من خيراته ويثبت فينا أحكامه / أن لا يحوجنا لغيره / أن يُنهضنا من كلّ ملل ويهدينا إلى سبله ويقبّلنا كما قبل العشار / أن لا يُوقفنا على شماله / يُغني الفقراء ويشفي المرضى ويربّي الأيتام ويُوفي عن المديونين ويفك المسبيين ويرد المسافرين وينيح الراقدين.

إنّها أيقونة صوتيّة تضرعيّة لطلبات الكنيسة وتوسلاتها في تسبحتها العميقة والعريقة، التي تؤديها كأوبرا إلهيّة (فلسفة الحكمة ولاهوت الحكمة)، وبها نستقي اللاهوت بسِعَة، لأنه لنا وإننا نحياه ونتذوقه حاضرًا الآن في السماء على الأرض. تعبيرًا نطقيًا كليًا عن حياة الكنيسة وإيمانها اللاهوتيّ والعقيديّ والروحيّ، والذي يجعل كلّ عضو مؤمن (كائنًا كنسيًا وكائنًا ليتورچيًا مسبحًا وعابدًا) يسبِّح السرّ المكتوم منذ الدهور.

ليتنا نكتشف جمال وعذوبة التسبحة لنعرف عطية الله ونحياها عبر التعابير والألحان والنغمات الروحانيّة. ونصغي إلى ذاك

الذي هو مُحتفىً به في وسطنا، حتّى تكون عبادتنا بالروح والحقّ. بالفم والذهن، عبادة عقليّة دون جمود في مشاركة وانسكاب، لنعيش تجسد الابن الكلمة بحسب التقليد الحي المقدس، الذي يحقق ويُأوِّن الأحداث الإلهيّة ويجعلها آنية (الآن) في تسبحة إبداعيّة حاوية كلّ اللاهوت، تستجلب المعاني السرّيّة لأحداث الخلاص في استجابة بلاغيّة وأسلوبيّة لخبرات الآباء الأولين في كنيسة القرون الأولى. وهي في جملتها مرآة تعكس عظمة وجمال عبادتنا: جمال المسيا المولود والكنيسة عروسه.

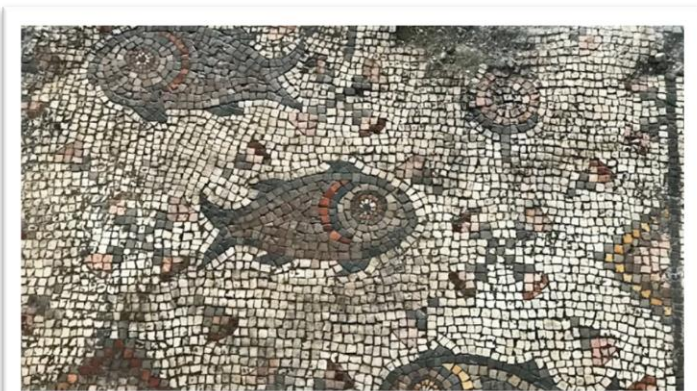

(٧)

العذراء مريم والثِيُؤطُوكِيات
(علم الثيؤطوكولوجيا) = المريميات

نشأت الثيؤطوكيات كأدب كنسيّ مكتوب يتضمن إيمان الكنيسة المحفوظ في وعيها وضميرها وتعليمها الشفاهيّ. وهي تتضمن خلاصة اللاهوت المريمولوجي في قطع قبطيّة موزونة لتمجيد والدة الإله القديسة الطاهرة مريم، لتشرح في اصطلاحات لاهوتيّة عميقة رموز ونبوءات وتوصيفات وتشبيهات عن العذراء وسرّ التجسد الإلهيّ العجيب. لذلك حوت ألقابًا ومديحًا وتطويبًا للعذراء، عاشته الكنيسة على الدوام وإلى مدى الأجيال عبر العبادة الكنسية اليوميّة، مضافًا إليها ما انتهت إليه المجامع الثلاثة القانونيّة. وتدل هذه الثيؤطوكيات على أنّ واضعيها كانوا شخصياتٍ لاهوتيّة ونسكيّة بارعة، حرصوا أن يجعلوا اللحن صلاةً والصلاة لحنًا، وأدخلوا تفاسير الكتاب المقدس لآباء الكنيسة كمادة أساسيّة في العبادة، تشكِّل المفردات والاصطلاحات اللاهوتيّة الغنيّة في مضامينها، لتكون معبِّرة عن وحدة الحياة وما يغترفه المسيحيّ من معانٍ كتابيّة في صلواته اليوميّة، فلا يبقىَ الكتاب المقدس مصدرًا قائمًا بذاته منفصلًا عن الحياة الكنسيّة، بل مادة بناء للحياة المسيحيّة التَقَويّة، وبالذات في العقيدة والليتورچيا.

وقد أتت في جملتها غنيّة وخصبة بالإشارات والتفاسير والرمزيات ضمن التيار الروحيّ النسكيّ والليتورچيّ في وحدة وانسجام.

ونرى أصالة الترتيل باسم العذراء القديسة مريم في أقدم ترنيمة محفوظة لمريم العذراء تحتوي على لقب ثيؤطوكوس. النشيد معروف في العديد من الأماكن على مستوى العالم، تم العثور على النصّ الأقدم لهذا النشيد في الليتورجيا القبطيّة لعيد الميلاد. ويسجل المخطوط الترنيمة باللغة اليونانيّة، ويرجع تاريخه إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادي. تستخدم الترنيمة حتّى يومنا هذا في شكل الترنيمة المعروفة الآن باسم (في ظل حمايتكِ)، وكذلك في الصلوات الأرمنيّة والبيزنطيّة والأمبروسيّة والطقوس الرومانيّة، وإلى جانب النصّ اليونانيّ، يمكن العثور على نسخ قديمة بالقبطيّة والسريانيّة والأرمنيّة واللاتينيّة. وترجمة الترنيمة هي[1]:

في ظلّ حمايتكِ،
نلتجأ، يا والدة الإله (الثيؤطوكوس):
لا تردي طلبتنا في وقت الشدة:
لكن نجينا من الأخطار،
أيتها النقية المباركة وحدكِ.

---

[1] للمزيد انظر:
Frederica Matthewes-Green, *The Lost Gospel of Mary: The Mother of Jesus in Three Ancient Texts*, Brewster MA: Paraclete Press (2007), pp. 85–87.

وقد احتوت الثيؤطوكيات على لاهوت العهد الجديد الذي تحولت فيه رموز العهد القديم إلى حقائق إلهيّة، تمت بحسب تدبير النعمة لتكميل الخلاص في شخص مريم العذراء القبة الثانية المباركة، التي صارت قدس أقداس وفيها لوحَا العهد، تلك العذراء هي التي دلتنا على (اليوتا) اسم الخلاص، الذي تجسد منها بغير تغيير وصار وسيطًا لعهد جديد، ومن قِبَل رشاش دمه الكريم تطهرنا وتبررنا وفزنا بالرحمة. هذه هي العذراء المتسربلة بمجد اللاهوت من داخل ومن خارج، قدمت لله شعبًا وشعوبًا كثيرة من قِبَل طهارتها. هي قديسة كلّ حين لأنها قسط الذهب النقي التي في وسطها المن المخفي، حملت في بطنها المَنّ العقليّ الذي أتى من الآب، ولدته بغير دنس ولا مباضعة. هي منارة ذهبيّة حاملة المسيح النور الحقيقي، وهي المجمرة الذهب النقي الحاملة الحجر المختار والبخور العنبريّ، حملت في بطنها غير المنظور كلمة الآب، هي الحمامة الحسنة وزهرة البخور التي أينعت، وهي عصا هارون التي أزهرت بغير غرس ولا سقي، مشتملة بالأنوار والطهارة وأعمال كريمة قيلت عنها، لأن الربّ أشرق جسديًا منها، ومن قِبَلها رجع آدم إلى رئاسته دفعة أخرى. بسبب طهارتها أحببنَ العذارى الطهارة وصرنَ بنات لها، ومن قِبَلها نجد دالة عند الديان بعد أن صارت هي إكليل فخرنا ورأس خلاصنا وثبات طهرنا.

عالية هي الأعجوبة التي لولادتها، وعظيم هو مجد بتوليتها الكاملة، الذي جعلها كالسُلّم الذي رآه يعقوب ثابتة على الأرض

ومرتفعة إلى السماء، جعلها كالعليقة المشتعلة التي لم تحترق، وككنز الجوهر التي وَلدت خالق الكل، وكباب المشرق المختوم بختم عجيب، دخل وخرج منه ربّ القوات وبقي مختومًا على حاله. إنّ كرامة العذراء لا يُنطق بها، زينتها في السموات العلويّة عن يمين حبيبها، والمواهب الإلهيّة التي نالتها كانت مواهب مضافة إليها وظلّت كذلك، طهارتها خشب لا يسوَّس لأنها حازت من النعمة بالقدر الذي يؤهلها أن تكون أم القدوس، المظللة بقوة العلي (بالشكينة) فصارت عرشًا ملوكيًا للمحمول على الشاروبيم، وارتفعت عن الطبائع العلويّة العقليّة لأن الذي في حجرها الملائكة تسبحه والشاوربيم يسجدون له باستحقاق والسيرافيم بغير فتور. هي باب المشارق، الخدر الظاهر الذي للختن، وكلّنا نسير في ضيائها لأنها ولدت لنا الحياة مخلص العالم الحي والمحيي. ولدت الحمل ومن مجده سَتَر كلّ عُري، ومن صوفه (ناسوته) وُلدت الطبيعة الجديدة وعدم الفساد، حملت بالظافر كسحابة نيِّرة ممطرة بالنعمة وخلاص العالم، لتُطفئ عطش حواء وتستر آدم الذي طردته نتانة العصيان. فكانت سحابة وعطرًا وبخورًا (c̀ϑoinoϥi) ومعملًا للاتحاد غير المفترق.

حقيقة إنّ هذه الشيؤطوكيات عميقة وغنيّة وزاخرة بالمعاني والحياة والأصالة وتحقيق النبوءات، ارتفعت درجتها الروحيّة فوق التعبير اللفظيّ بل وفوق المعقول. تتكشف معانيها بالبرهان العملي، وتتميز بأنّ جوهر الوزن فيها هو للوزن الفكريّ والإلهام،

ولِمَا لا؟ ما دامت مريم العذراء هي فردوس الكلمة الحاويّة للاهوت؟! فكلّ تمجيد للمسيح هو فخر للعذراء، ويُعتبر في حد ذاته مديحًا لها كأمّ المسيح، فلا يمكن فَهم قداستها وتمجيدها بعيدًا عن المسيح المتجسد، ففي تكريمنا لها مراجعة لكافة أحداث الخلاص بصفتنا مشاركين لا مشاهدين، نرقىَ إلى كرامة شهود عيان لتاريخ الخلاص، شهود يعاينون حياة المسيح عيانًا. هذه كلّها حرص عليها الشاعر القبطيّ في وضع الثيؤطوكيات لتكون لنا نسيج قماشة التسبيح الذي لا يَعرف التقسيم العقليّ الذي ساد مدارس اللاهوت في فصل التجسد عن الصليب والقيامة وأسرار الكنيسة. إنّها أوبرا إلهيّة وسيمفونيات ومدخل إدراك الخلاص الذي يتحقق الآن في عبادة الكنيسة، فيتعظم مجد مريم وتطوِّبها الشعوب.

(٨)
عِطْر التَّجَسُّدِ الخَلاصِي

يدعو التقليد القبطيّ القديس كيرلس عمود الدين (ختم الآباء) كذلك يعتبره دكتور التجسد، فقد أبدع واستفاض في شرح سرّ التجسد الإلهيّ، وجمع في تعليمه ما قاله السابقون له وأبرزه في صورة واضحة متكاملة.

حيث رأىَ أنّ التجسد سرّ يُعبد في صمت إيمان بدون التواء، لأنه فائق للوصف، عميق وسرّي ولا يُنطق به، فائق للعقل. ففي المسيح حل كلّ ملء اللاهوت جسديًا، ويرمز القديس كيرلس لسرّ التجسد الإلهيّ بالتشبيهات: العليقة، جمرة إشعياء، اتحاد النار بالحديد، النار والماء، تابوت العهد. ذلك الاتحاد الأقنوميّ هو اتحاد اللاهوت بالناسوت، طبيعة واحدة للكلمة المتجسد. من غير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، هذا الاتحاد الأقنوميّ ليس نسبيًا وليس مجرد سُكنى ولا مشاركة، اتحاد غير قابل للانفصال، إذ لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة ولا طرفة عين. اتحاد حقيقي طبيعي وجوهريّ، فالمسيح هو واحد من اثنين (لاهوت وناسوت في وحدة حقيقيّة).

تجسد الكلمة وحل بيننا وفينا بالنعمة لكي يوحدنا به، ولكي يرفع الذي بلا كرامة إلى كرامته الخاصة، فنغتني نحن بشركته، ونستمد

منه نعمة التبنّي وننعتق من الفساد. ذلك هو سرّ المسيح، سرّ الاتحاد الفائق الذي تم في المسيح بين اللاهوت والناسوت عندما جعل الاثنين واحدًا (لاهوت قدوس بغير فساد، مساو للآب في الجوهر، وناسوت مقدس بغير استحالة، مساوٍ لنا كالتدبير. بتجسده وحّدنا به بكيفية هو وحده يعلمها، سرّيّة فائقة، وتجسده هو وسيلة اتحادنا به، وهو غاية غنى شركتنا معه، وهو سبب نوالنا نعمة البنويّة، فهو من جهة متحد بالبشريّة التي يتوسط لها، ومن جهة أخرى بالله الآب، فهو بطبيعته إله حقّ من إله حقّ، غير منفصل عن جوهره الذي وُلد منه، ومن جهة أخرى هو الابن المتجسد الذي شابهنا ليوحدنا بالله بواسطة نفسه، أي أنّ المسيح هو بعينه إله وإنسان واحد، يوحد في نفسه الإنسان مع الله ويعطينا الإمكانيّة للاتحاد وللشركة وللبنويّة ولغنى الميراث، إنّه حلقة الوصل الذي يجمع الله بالإنسان لأنه واحد مع الآب في الجوهر بحسب الطبيعة، ومن جهة أخرى هو ابن الإنسان الكلمة المتجسد.

بتجسده صرنا أقرباء لله الآب، وشركاء في طبيعته الإلهيّة ونلنا غنى التبنّي، صار مثلنا لنصير مثله أبناء، صار ابنا بكرًا بين إخوة كثيرين لنصير نحن فيه وبواسطته أبناء لله. صار بكر القديسين، وهو نفسه الباكورة للذين يولدون من الله بالروح، أي الذين ولدوا لا من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل لكن من الله. صار مثلنا ليحررنا وينقلنا إلى حرية مجد أولاد الله، فنُدعى أولاد الله بالنعمة، بينما هو ابن الله الوحيد بالطبيعة. هو هيئة وشعاع

وصورة وحكمة الله الآب، الذي كان من البدء وارثًا لكلّ شيء وبه أيضًا عمل العالمين.

إنّه يتصور فينا ويغيرنا تغييرًا جذريًا وبُرقّينا إلى كرامة رتبة البنين، فنترك صفاتنا البشريّة البهيميّة، ونتغير لصفاته هو. تنطبع فينا صورته وبهاؤه عندما يضيء في نفوسنا بالتقديس، ونقبل نحن عمله فينا بالطاعة والقبول وتوافق الإرادة (السينرجيّة Συνεργεια). ومن ثمَّ نخبر بأعماله الكريمة، وبفضل هذا التدبير الإلهيّ العجيب والذي به خلّص الله العالم ووضع على كلّ واحد منّا نِير ملكوته. مسيحنا المولود مع كونه إلهًا تراءى لنا وأخذ شكل العبد، ولم يتوقف عن أن يكون على ما كان عليه قبل التجسد، فقد أتت القوات الناطقة التي في السماء تحمل الأخبار المفرحة لاستعلانه وظهوره في العالم. كذلك أعلن نفسه للساهرين من الرعاة الروحيين حتّى يبشروا الباقين ويعلنوا مجده كإله مولود في الجسد من امرأة بسرّ عجيب من العذراء مريم ومن الروح القدس.

أخذ شبهنا واتخذ صورة عبد إلّا أنّ مجد الربّوبيّة ظلّ ملازمًا له بغير انفصال، الابن الوحيد صار جسدًا ليرفع الشقاء عن جنس البشر، وليعتقنا من لدغة الموت، وليحل عنا سطوة اللعنة، ويزيل سلطان الموت ويدين الخطية، وبميلاده انكسر طغيان الشيطان وسُلبت قوته، ومن ثم تصالحنا نحن مع الله وتمتعنا بمجد الأعالي وبمسرة وسلام وإيمان وبر أناس الله ذوي المشيئة الصالحة.

فالسرّ الحاصل في المسيح قد صار بداية ووسيلة لشركتنا ووحدتنا وبنوّتنا في الله، بعد أن غرس نفسه فينا باتحاد لا يقبل الافتراق، فلا ندعى بعد أولادًا بالجسد بل نتحول بالحري إلى ما هو فوق الطبيعة، فندعى أولاد الله بالنعمة -الكلمة صار مثلنا لكي نصير نحن أيضًا على مثاله- على قدر تجاوبنا وتجديدنا الروحيّ وقبولنا النعمة. وضع المسيح نفسه لكي يرفعنا إلى رفعته الخاصة، ولبس صورة العبد مع كونه بحسب الطبيعة هو الربّ، لكي يجعل الذي هو عبد بالطبيعة يرتقي إلى مجد التبنّي على مثاله هو، أخذ لنفسه ما هو لنا وأعطانا في المقابل ما هو له، فلا نكون مرفوضين بل نحيا به ونكون فيه ونثبت فيه وإليه نأتي وعنده نصنع منزلًا وننال عطية الحياة الإلهيّة وغنى رجاء المجد.

اتحد اللوغوس بطبيعتنا لكي يشفيها ويخلصها ولكي يغرس نفسه فينا بوحدة لا تنحل ويجعلنا أقوى من الموت والفساد، لبس جسدنا لكي يقيمه من الموت ولكي يجعلنا نُوجد فيه، ولكي يخلصنا ويزجر حركات الفساد التي فينا، ويقيم طبيعتنا البشرية كلها، ويجعلنا منتسبين إليه بامتياز خاص. دخل الابن الوحيد البكر إلى العالم وسجدت له كلّ ملائكة الله، ورغم أنّه هو الابن الوحيد من جهة ألوهيته، إلّا أنّه صار أخًا لنا وهو الباكورة لتبني البشريّة، جاعلًا منا أبناء لله. وهو البكر من جهة التدبير، إله حقّ من إله حقّ، وحيد من وحيد، إله أشرق من إله، نور من نور. اضطجع في مذود ولم يكن له موقع في منزل، وضع نفسه مثل علف المذود

ليرفع حياتنا الحيوانيّة إلى درجة التعقل والبصيرة، وقربنا إلى مائدته الخاصة لنجده جسد وخبز الحياة والخلود النازل من السماء، إنّه لم يزل كما كان قبل أن يتجسد، فأتت القوات السمائيّة بالأخبار المفرحة عن ظهوره، وكان الرعاة الساهرون أوّل من حصل على معرفة السرّ. ربّ الكلّ في شكل عبد، لكن مجد ربّوبيته غير منفصل عنه، مجده أضاء علينا وتهللت الخليقة كلّها بمجيئه، صنع سلامًا مصالحًا الجميع، جامعًا فيه كلّ الأشياء، الذين في السماء والذين على الأرض، رافعًا من وسطنا الذنب المؤدي للعداوة موحدًا ومصالحًا الجميع، افتقر وهو الغني لكي يغنينا بفقره، أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له، أخذ شكل العبد لكي ينعم علينا بما له، فصرنا نحن على ما عليه بسرّ عظيم وحقيقي ومكرم جدًا. إنّ الكلمة الذي هو بهاء مجد الآب ورسم جوهره الذي هو صورة الله، هذا الكلمة هو بنفسه وبعينه صار شكلنا وأخذ صورة عبد. جعل جسد البشر جسده الخاص. هو نفسه إله وإنسان معًا. الكلمة منذ الأزل جاء وولد في الزمان جسديًا من العذراء مريم ومن الروح القدس. احتفظ بطبيعة اللاهوت وبطبيعة الناسوت، احتفظ بهما معا في طبيعة واحدة، طبيعة الإله المتأنس، الجسد لم يتحول إلى طبيعة اللاهوت ولا طبيعة كلمة الله التي تفوق التعبير تغيرت إلى طبيعة الجسد. لأنه غير قابل للتبدل أو للتغيير. حينما كان منظورًا، وكان لا يزال طفلًا مقمطًا، وكان في حضن العذراء التي حملته، فإنّه كان يملأ كلّ الخليقة كإله "الربّ يسوع

المسيح هو واحد" (١كو ٨: ٦) هو عمانوئيل الله معنا وما يقال عن أنّه كان ينمو في القامة وفي الحكمة وفي النعمة (لو ٢: ٥٢) يخص التدبير، لأن كلمة الله سمح لبشريته أن تنمو حسب خواصها وقوانينها، لكنه واحد مع الله في الجوهر، له نفس الطبيعة والسلطان والقوة والعمل والطاقة والإرادة والمشيئة. بالتماثل والتساوي والمشابهة، في عيد ميلاده أظهر محبته وقبوله لنا ونقض أعمال إبليس ليطهرنا من كلّ خطية ويبدد عنا كلّ معقولات الشيطان والضلال، به نحيا حياة النور والحق والقداسة والمعرفة الحقيقية والكمال والثبات فيه والبصيرة الأبديّة. لقد وُلد ليولد فينا لا لنُحيي هذه المناسبة، وُلد في التاريخ ليولد فينا، لا لمجرد أن نحيي ذكرى ولادته.

(٩)

المخلص الذي ننتظره!!

نحن في عيد الميلاد ننتظر ميلاد يسوع المسيح مخلصنا مُحبّ البشر الصالح، لا ننتظر (*Santa*)، لأن وجه يسوع الإلهيّ هو الأبرع جمالًا من كلّ أحد وهو الأصدق، وقد انسكبت النعمة على شفتيه، أمّا الشجرة والزينة والهدايا والأطعمة هذه مظاهر فلكولوريّة، لا تقدم ولا تؤخر إذا لم نستقبل مسيحنا في قلوبنا، لأننا لا نعيد لعادات اجتماعيّة يستوي فيها المؤمن مع غيره. خاصة أنّ هدايا بابا نويل ليست هداياه، لماذا نعيد أذن بخفة (في حال اختزالنا العيد فقط في شكله الاجتماعيّ الاحتفاليّة دون عيش الحدث الخلاصي). ماذا تفيد الشجرة إذا كانت حياتنا مقفرة من الثمار؟! وماذا تنفع الأنوار وحياتنا مظلمة وتعيسة؟! زينتنا هي في فضيلتنا ومخافتنا وسجودنا، ونورنا هو انعكاس لنور المسيح الذي يشرق فينا، أمّا شجرتنا فهي في اقتنائنا شجرة الحياة كرمتنا الحقيقيّة، وهديانا "ذهبًا ولبانًا ومرًا" التي هي تقدّمة نفوسنا لمن أعطانا ذاته بالكلّيّة، لنعاين مجد وبهاء عظمته، لأنه أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له. لنقبله وقد أضاء علينا بلاهوته العالي ونتحد به ونرضيه، ونخدمة كما يليق ونسبح اسمه بعبادة عقليّة، تاركين سطحيات وتفاهة هذا العالم، حتّى لا نصرف عمرنا باطلًا، بل

نقرب له حياتنا تقدمة وصعيدة خالصة عنده، أي حبنا وطاعتنا وصومنا وصلاتنا وكلّ ما لنا، نقدمه ونحن غير منشغلين أو مرتبكين، بعيدًا عن خلاصنا. لأن هو مخلصنا الوحيد الذي ولد في بيت لحم الصغرى ليرجعنا إلى الفردوس المدينة السمائيّة، وأكتتب ليكتبنا في سمواته وفي سفر الحياة، وتقمط ليتكفن ويفكنا من رباطات الخطية والعبوديّة، وجاء متجسدًا ليغذينا من بيت لحم بخبزة الحي الكلمة اللوغس. وقد بزغ في ظلمة المغارة ليبدد ظلمة العالم كلّه. فيبصر نوره الأبدي كلّ الجالسين في الظلمة. فصحنا وبصختنا الذي حمل على كتفيه مفتاح الحياة برئاسة صليبة المحيي. إنّه ولد ليمنحنا حياة، فلنمجد ميلاده، أتى إلينا لنستقبله، وتنازل من أجلنا ليرفعنا، وقد صار على الأرض، وهو الأول والأخر والكائن الذي كان والدائم إلى الأبد. المجد لك يا ربّ الصباؤوت الساكن في النور الأعظم يا من أتانا في الناسوت وولد من العذراء مريم، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا.

(١٠)

إِخْوَتُنَا الأَصَاغِرُ وهَدِيَّةُ المِيلاَدِ المَجِيدِ

مع نهاية العام والاستعداد للميلاد المجيد، قدم هداياك في وسط هذه الظروف المناخيّة والحياتيّة التي نعيشها، قدم هديتك للمولود الإلهيّ لتكون شريكًا في الحدث الخلاصيّ العجيب، قدم نفسك فتأخذ النصيب والميراث. هلموا بنا نزور المسيح، نعتني بالمسيح، نطعم المسيح، نكسي المسيح، نستضيف المسيح، نكرم المسيح، نسقي المسيح، هلموا نُجلسه معنا على مائدتنا ونصبّ عليه قارورة الطيب، هلموا نشترك مع يوسف ونيقوديموس والمرأة صاحبة الناردين كثير الثمن، هلموا نقدم له قبرًا لأنه غريب وندبر له كفنه، هلموا نقدم الذهب واللبان والمر مع المجوس. هدايانا ليست في الفلكلور والعادات وروتين مظاهر الاحتفال والمراسم والاستقبالات والبروتوكولات، هدايانا هي الرحمة والمسامحة وذبيحه العطاء، للمسكين والفقير والمطرود والمريض والمظلوم والمسجون والمطروح والمتروك، حتّى إذا انتقلنا يستقبلوننا في المظال الأبديّة. فكلّ ما نفعله مع هؤلاء إخوته الأصاغر "فبه نفعل".

اطعموا الجائعين للخبز وللبر واسقوا العطشانين للماء وللخلاص، واكسوا العرايا للملابس وللستر من الفضيحة،

واستضيفوا المطرودين والذين هُدمت أو حُرقت بيوتهم. افتقدوهم وشجعوهم وعاملوهم كشخص الربّ، لأن مجده ليس في المظاهر والبهرجة والسفريات والإنشاءات والاحتفالات. لكن مجده في عبيده الذين سماهم واختارهم خاصته "إخوته الأصاغر"، قدموا لهم كؤوس الماء لأنها محصاة عند الذي ليس بظالم أن ينسى تعب المحبّة. هل يعقل أنّ بيننا في هذا العالم آلاف جوعى وعراة وبلا سقف؟! شُردوا وحُرقوا وصاروا تحت الضغطة والعوز، من جراء اضطهاد إبليس للمؤمنين!! ولازال زمن الشهداء والمعترفين، الحاملين دماءهم وخراب بيوتهم وجروح مصابيهم وأحزانهم مصرورة ومعظمها ملطخ بالتنازلات والخسائر، التي سيعوضهم عنها إله التعويضات الذي يسمع أنينهم ويرى بعينه ما جرى لهم خلف أستار الظلام.

فلنسرع إلى هؤلاء المحزونون والمسلوبون والمنهكون من جراء الغلاء ومصاعب الحياة، ووطأة الاضطهاد الحادث، صانعون من عيوننا شبكة تصطاد المحتاجين للمعونة غير المؤجلة ونغسل أرجلهم ونُتكئهم ونستضيفهم ونعتني بهم ونقدم لهم حتّى ولو كسرة خبز تسند قلوبهم وسط ما عانوه من جفاء وعوز وظلم وما جازوه في أنفسهم كما اجتاز الأولون. إننا عندما نكون في خدمتهم نرى بشريتنا وأقاربنا فلا نطعم أنفسنا دون أن نطعمهم ونكسيهم ونغطي عريهم. لأننا إذا لم نفعل ذلك سنذهب مع الملاعين إلى النار الأبديّة، لذلك نصلي كأنّ كلّ شيء يعتمد على

الله، ونعمل كأنّ كلّ شيء يعتمد علينا. عالمون أنّه بدون الإفخارستيا يكون لا معنى لهذه الأعمال، وتصبح مجرد خدمة اجتماعيّة خيريّة. لكنها بالشركة والإفخارستيا تكون دعوة لخدمة يسوع المصلوب "**أنا عطشان**" كي نطفئ ظمأة المتواصل في إخوتنا المساكين.

كذلك أثمن التقدمات والهدايا هي أن لا نقدم أموالًا وذهبًا وفضةً ومفاخر فقط، لأن جميعها مادي وسيزول ومرتبط بهذه الدنيا السفلى، لكن بالأحرى نقدم أنفسنا للذي وُلد لأجلنا وأتى إلينا، فنأتي نحن إليه، ليولد فينا ونقدم له عطيه النفس، التي هي أثمن الهدايا لدى الله والأكثر إرضاءًا له. ومن ثَمَّ نقدم كلّ ما عندنا لإخوته الأصاغر، لأن لهم الأولويّة المطلقة على كلّ شيء بلا استثناء، مادمنا قررنا أن نقدم الكلّ لذاك الذي قدم نفسه فدية عنا وبدلًا منا، صائرين من أجل المسيح، كلّ ما صاره هو لأجلنا.

ΙΧΘΥΣ

(١١)

قصد الدهور

مختارة المختارين لتكون خادمة سرّ التدبير الإلهيّ العذراء مريم أمّ الكلمة، حالما أطاعت قول الربّ وصارت أمه الربّ بالطاعة والقبول، حبلت بالكلمة المتجسد. ولدته وبقيت عذراء حتّى بعد الولادة محسوبة بين الأمهات وهو عذراء وبتوليتها مصونة ولم يسقط عنها بهاء خدر البتوليّة، بلباسها سترت آدم وحواء بلباس النعمة، وهو سرّ التدبير العجيب الذي لا يوصف ولا يدرك.

كصخرة نبعت منها ينابيع مجاري المياه وكعصا هارون التي أفرخت وأينعت ثمرًا، وكالمن النازل من السموات وكور الدقيق ووعاء الزيت المفاض، وكنبع غصن يسى وندى جزة الصوف التي أنقذت العالم من آتون نار الجحيم. دخل الربّ غير الجسديّ إلى إحشائها حمل به كما أرتضى، وولد بالطريقة التي أرادها. فلنوقره كربّ ونعبده كإله ونسجد له كسيد، ولنقدم له هدايا ذهب ملكه على حياتنا ولبان الصلاة ذبيحة التسبيح ومر الآلام والتقدمات، ونمجد سرّ التدبير الخلاصيّ.

لك الفرح يا والدة الإله مريم ياحاملة البخور المختار العنبريّ أمّ ربنا القدوس ومعك غبريال مبشركِ بالبشارة المفرحة. غبريال الملاك خادم إعلان الخلاص المسكونيّ الذي بشرك لتكوني الغرفة

المستحقة لحشا عرس الختن الإلهيّ والقصر النفسانيّ الملوكي. لك الفرح يا يوحنا المعمدان صديق العريس وصوت الكلمة الصارخ والكاهن الناسك والنبي الشهيد الذي أعد الطريق من قدام وجهه العلي. لكما الأفراح يا يواقيم وحنة الأبرار، وللكاهن الخديم زكريا النبي البار، واليصابات أمّ أعظم مواليد النساء. إنّ المجد والسجود يليق بك يا ربّ الصباؤوت الساكن في النور الأعظم يا من أتانا في الناسوت وولد من العذراء مريم.

سرّ العليقة الملتهبة نارًا وقصد الدهور بأن تكون مثالًا للتجسد الذي أعلن احتمال الناسوت لألوهيّة الكلمة إذ لا يوجد شيء مستحيل عند الله. فالنار تشتعل والشجرة خضراء والطبيعتان موجودتان، طبيعة النار وطبيعة خضرة الشجرة، التي لم يغيرها اللهيب، مثل لاهوت الكلمة المتجسد بناسوته، في اتحاد طبيعي في الأقنوم، لم يفارقه لحظة ولا طرفة عين. عليقة مشتعلة لكنها لم تحترق لأن المتجسد لا يريد هلاكنا في شقائنا لكن قصده شفاؤنا وخلاصنا منذ الظهور، يعطينا ذاته وخلاصه ليبيد الخطية، والفساد وهكذا في رمز النار حفظ قصده، فإشراقة نور حياة تأنس الكلمة شمس البر، الذي بدد ظلام شرّ الشيطان وأنار الحياة والخلود للجالسين في ظلال الموت. الحياة الحقيقيّة استعلنت وصار جذر إيماننا بذبيحته الخلاصيّة الشافيّة المحييّة، التي هي قصد الدهور. حول هذا المقصد نجتمع ونسبح للمولود المُشرع الجديد، ذو الناموس الأبدي والعهد الجديد، ونجتهد في تفسير

وشرح نبوات بشارة وميلاد وحيد الجنس الكلمة الأزلي المولود من الآب قبل كلّ الدهور، والذي صار إنسانًا من أجلنا بمسرة أبيه.

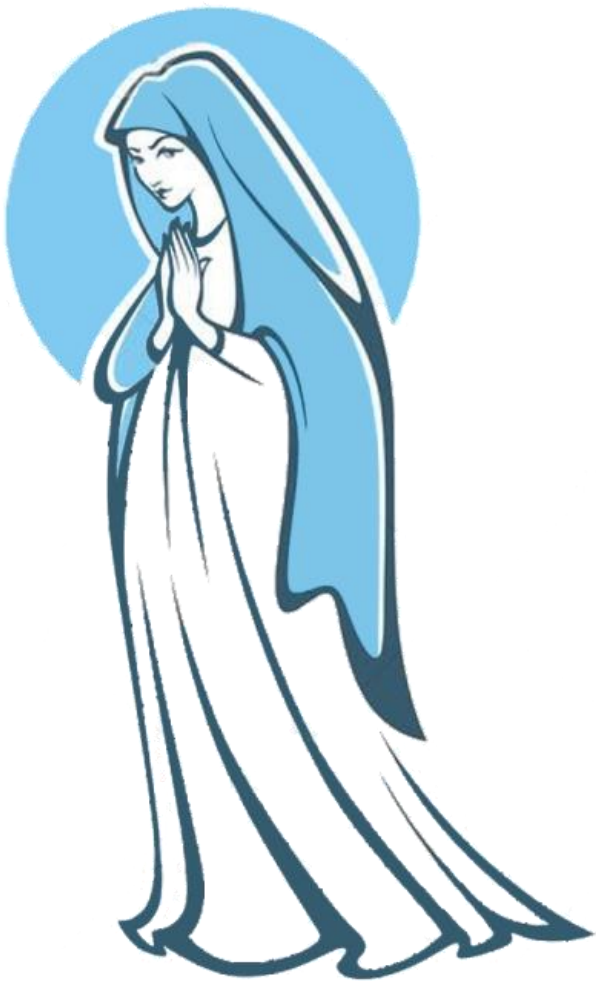

ιχθυς

(١٢)

فِي احْتِفَالِ عِيدِ المِيلاَدِ بِالغَرْبِ

في احتفال عيد الميلاد بالغرب، نرى مغارة مصنوعة من قش ناعم معطَّر، وشجرة مزينة وديكورًا فخمًا للمذود. بحيث صارت مناسبة عيد الميلاد أو ما اصطُلح عليه (الكريسماس) مجرد ألوان وأنوار وزينات وهدايا، غاب عنها جوهر ومعنى الحدث الخلاصيّ. احتفالًا غاب عنه إخلاء وفقْر المسيح الذي صار فقيرًا كي نغتني نحن بفقره وخلاصه وقدّاسة مجده. فقد أُلصِقت بالمناسبة سطحيات حوّلتها إلى موسم للتسويق والترفيه والفلكلور وقياس الحالة الاقتصاديّة والاستهلاك. اكتفىَ الغرب بالتعييد للميلاد بهذه المظاهر السطحيّة.

كذلك غاب تمامًا وبَهُت الاحتفال بعيد القيامة، لأن الثقافة الغربيّة تتعامل مع الموت بطريقة هاجسيّة، تتراجع فيها فكرة المقدس، ويتحول الإيمان إلى موضة قديمة وإلى دافع إضافي لاستلاب الإنسان من خلال استخدامه التجاريّ، الأمر الذي جعل من حدث الموت والدينونة مجرد فكرة فلسفيّة وعبثيّة، تقترب أكثر فأكثر بأنّ الموت مجرد حدث طبيعي بيولوچي، لا قيمة له إلّا إذا كنت مؤمنًا وتمارس الإيمان. وبالرغم أنّ موت المسيح وقيامته هو عمل التدبير الخلاصيّ، لكنه في الغرب صار أقل أهمّيّة وغاب

تمامًا، لأن فكرة الموت بهتت وفقدت معناها، إذ يُراد الهروب من التأمل أو التفكير فيها أو حتّى تذكُرها.

أمّا احتفالات الكريسماس فقد اختُزلت في شخصيّة سانتا وهداياه وبعض الطقوس المجتمعيّة، علاوة على المظاهر الملازمة لفلكلور المناسبة بعد تفريغها من مضمونها الإلهيّ والخلاصيّ، خاصة عندما يكتشف الطفل أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مزحة أو طرفة لخيال خصب، يتم الإعداد لها بتمثيل متقن، على عكس ما ترسَّخ، وما كان يعتقد، خلوًا من المصداقيّة ومضاد للمعقوليّة.

لذلك ينعكس سلبًا على الإيمان بالحدث وعلى سلامة الاعتقاد. وهنا لا بُد أن ننبه لحقيقة الأمر بأننا نحتفل في عيد الميلاد بتجسد الله الكلمة صاحب العيد الذي وُلد لنا ومن أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا. وُلد في بيت لحم (بيت الخبز) ليكون خبزنا السمائيّ. وُلد في مزود وأسطبل حقير للبهائم كي يبارك طبيعتنا ويهذبها ويرقّيها، ولكي يرفعها من حضيض أنانيّة الشهوات والأطماع. وُلد بمعجزة أعلى من قوانين ونواميس الطبيعة المعروفة. وُلد كي يصنع الخلاص علانيّة، ونحن مدعوون أن نأتي إليه لأنه أتى إلينا، عمانؤيل (**الله معنا**) العجيب والمتعجَّب منه بالمجد، الذي يعلن نفسه للسهارَى الساهرين، ويحسبهم مع الرعاة الصاحيين ليحرسوا أمر خلاصهم بحراسات الليل، مشرقًا علينا بمجده، فنتبعه مع جمهور جند الربّ، حتّى وإنْ يوجد إثمًا في قلوبنا، فهو يُسطع علينا

نور وجهه بغفرانه ورحمته التي لا تُستقصَى، ويجمع الحُملان والقطعان إلى حظيرته.

إننا في عيد الميلاد نعيّد لميلاده كي يأتي ويموت ويقوم من أجلنا، فننتقل من مرعىً إلى مرعىً عند مقر الحمل الإلهيّ المولود، ونحمله في داخلنا بعيدًا عن كلّ المظهريات، لأننا سفراؤه، ولا عبرة عندنا للأزمنة من غير ولادته فينا، وألف سنة في عينيه كيوم أمس الذي عبر، وهو الذي يملأ أعمارنا بضياء طهارته وخلاصه ورحمته الأبديّة "مجدًا في الأعالي وسلامًا على الأرض ومسرة للناس".

في عيده نتبع النجم لنقدم هدايانا -"قلوبنا وحياتنا وسلوكنا وكلّ ما لنا. ساعين وراء العلامة، نحو حياة الحياة ليحل علينا مجد ضيائه الخلاصيّ -"طفلًا مقمطًا مُضجعًا في المزود"- كإشارة مسموعة ومرئيّة من رئيس الرعاة راعي نفوسنا الآتي ليرعانا ويستردنا ويجمعنا، لنكون فيه بسرّ يفوق الوصف، وبكيفيّة لا يمكن التعبير عنها، لأن الذي من فوق سكن بيننا على الأرض، والذي هو من تحت يرتفع إليه وبالمراحم تمتلئ السماء والأرض من إعلان ملكه.

مسيحنا المولود هو شجرة حياتنا وزينتنا وفرحتنا وهديتنا وعطية جميع العطايا، الذي يخلصنا من الرائحة البهيميّة، لأنه مشير عجيب أبو كلّ الدهور، نسجد له مع كلّ الكون، ونعيّد له بثياب التسبيح مع الخليقة التي تهللت بمجيئه. نعيِّد له لأنه هو هدف التاريخ ومحوره، وهو مركز حياتنا وحضورنا. هو فرحنا في المسرات،

وتعزيتنا في الأحزان، ومعونتنا في التجارب، وهو الذي جعل لحياتنا معنىً، وقد صار لنا خلاصًا وفصحًا مقدّسًا. فردوسه هو أملنا، وصار لنا حصنًا برحمته التي بها أحيا كلّ الأرواح وفتح العيون ومنحنا البيعة الحلوة، المجد لميلاده بسرّ التقوى العظيم.

(١٣)

برامون عيد الميلاد العجيب

يوم البرامون هو اليوم السابق لعيد الميلاد، وهو يوم مداومة واستعداد لاستقبال الربّ المولود بعد رحلة الصوم وعبادة التسبيح الميلاديّ. متجهة قلوبنا نحو مدينة بيت لحم الصغرى، حيث هدية خلاصنا وأكتتابنا وتسجيل أسمائنا في السموات. نتبع النجم السماويّ ونسلك طريق المولود المؤدي إلى الحياة والفرح والخلاص. في رحلة تضم الرعاة الساهرين وجمهور جند السماء وهدايا الملوكيّة والكهنوت والآلام، وهناك نجد ذلك المزود العلامة حيث ذبيحة العالم كلّه وسط الحملان. الحمل السالم المختار من أجل خلاصنا، فنسجد ونقدم نفوسنا الشقيّة ليرفعها من بهيميتها لتكون على صورة جماله البارع في كلّ شيء. فنحن اليوم أمام أعظم ولادة في التاريخ لعذراء وأمّ وعمل الروح القدس وملائكة وتسبيح وبتوليّة وطهارة وإشراقات ونور ومزود ومغارة بزغ منها المجد والسلام والمسرة، وتجسد ابن الله الكلمة وظهوره المحيي بالحياة التي أظهرت لنا. ولادة الابن الوحيد الجنس أحد الثالوث القدوس، الذي أتى في ملء الزمان، ليكون محور ارتكاز الزمن والتاريخ. وهو مشتهي كلّ الاجيال وجميعها تهللت بمجيئه، المسيا الذي افتقدنا بالخلاص وهو آية الخلاص والميلاد الثمين، وهو الحامل

الرئاسة على كتفيه بالصليب وبمفتاح داود الذي به يفتح ولا أحد يغلق. مشرقًا علينا بنوره وفرحه وخلاصه، فيالا الميلاد البتوليّ ويالا الطلقات الروحانيّة ويالا الولادة الإلهيّة والعجب العُجاب كقول الأنبياء.

من إصدارات

سلسلة أكثوس ΙΧΘΥΣ

سلسلة آباء الكنيسة:

1) القديس إيريناؤس أسقف ليون
2) العلامة بنتينوس الإسكندريّ
3) العلامة يوسابيوس القيصري
4) القديس ديديموس الضرير
5) العلامة لاكتانتيوس
6) العلامة القديس ميثوديوس الأوليمبيّ
7) إغريغوريوس صانع العجائب
8) القديس إيفاجريوس البنطيّ
9) القديس هيلاري أسقف بواتييه
10) الرسالة إلى ديوجنيتس
11) القديس إبيفانيوس أسقف سلاميس
12) أمهات قديسات
13) العلامة ترتليان
14) القديس إيسيذروس الفرميّ
15) جهال من أجل الله
16) ثيؤفان الحبيس
17) القديس كيرلس الكبير ورسائله ضد النسطوريّة
18) القديس أموناس ورسائله إلى الرهبان
19) الآباء المؤرخون
20) القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا
21) القديس يوحنا التبايسي
22) القديس ألكسندروس بابا الإسكندريّة ورسائله ضدّ الآريوسيّة
23) أفراهات السريانيّ
24) القديس إيلاريون الكبير
25) القديس يوحنا كاسيان
26) القديس ديونسيوس الإسكندريّ
28) البابا أثناسيوس الرسوليّ (دفاع عن قانون إيمان مجمع نيقية)
29) القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة
30) القديس يعقوب البرادعي
31) القديس أثناسيوس الرسوليّ (كتاباته – أعماله)

سلسلة دراسات آبائيّة:

1) الكنيسة في فكر الآباء
2) الاستشهاد في فكر الآباء
3) البتوليّة في فكر الآباء
4) اللاهوت في فكر الآباء
5) رحلة الكنيسة في الصوم الكبير
6) التربية عند آباء البرية
7) قوة الاسم
صلاة يسوع في الروحانيّة الأرثوذكسيّة
8) سيكولوجيّة الاعتراف
9) الأمانة في التعليم
10) القديسة مريم المجدليّة
11) البابا المعلم
12) ذكرى آلامه المقدسة
13) حياة وفكر كنيسة الآباء
14) رسالة إلى كلّ نفس متضايقة
15) لكي لا ننكر المسيح
(لماذا يرتد البعض)
16) الرسل الأطهار
17) المؤرخ العلامة يوسف حبيب
18) التنشئة اللاهوتيّة والوعي الثقافي الكنسيّ
19) رواد مدارس الأحد
20) رحلة الكنيسة في صوم الميلاد وتسبحة كيهك